في تسعينية المعمار د. محمد صالح مكية وحديثه عن التراث والحداثة المعمارية

(إن العمارة) هي (العمران) الذي يتضمن القيم الانسانية والروحية والاجتماعية

حاوره د. علي الثويني
معمار وباحث عراقي / ستوكهولم

لايمكن التطرق الى الحداثة المعمارية في العالم العربي دون ذكر ثلاث شخصيات تركت أثرها في صلب الحالة الإبداعية بمشارب شتى، هي المصري حسن فتحي و العراقيان رفعت الجادرجي ومحد صالح مكية. واليوم نؤرخ بسيرته تجربة قرنية ثرية تنقلت من لب التراث في بدايات القرن العشرين الى صعود متسارع للحداثة في بواكير القرن الواحد والعشرين. كل تلك الهموم حملها المعمار الدكتور مكية في خاطره، ذكرى وتجربة خصبة، ورأي ناضج لواقع الأيام ومنظورها.

ولد المعمار مكية في بغداد عام ١٩١٤ ودرس العمارة في بريطانيا بين أعوام ١٩٣٥-١٩٤٦ حصل خلالها على شهادة الدكتوراه في التخطيط الحضري ،وعاد بعدها الى العراق .عمل في تخطيط المدن وحث الخطى في رسم ملامح خطاب وطني للعمارة والعمران . أجتهد في الإنتاج المعماري وصمم مباني ومدناً جميلة. ترك العراق عام ١٩٦٨ بعد حلول سلطة حزب البعث وأستقر به الحال في دول عربية خليجية ثم في بريطانيا ونشط خلالها في مشاريع عمرانية ومعمارية كبرى .أسس له مكتبا إستشاريا في العمارة والعمران وكانت له فروع في مدن الخليج والجزيرة ومن أهم أعماله مسجد الخلفاء في بغداد وجامعة الكوفة و جامع الدولة الكبير في الكويت ومجمع المحاكم في الرياض وتخطيط وتوسعة مدينة مسقط و مشاريع عدة في البحرين ودبي وإسلام أباد. يعيش اليوم في لندن وينشط في إحياء التراث الثقافي العربي والإسلامي من خلال (ديوان الكوفة).

كان لنا فرصة اللقاء بالدكتور مكية في ديوانه بلندن، وأجرينا معه حوارا بما يتعلق بجدلية التراث والحداثة في عمارة المجتمعات العربية، لاسيما ما يتعلق بفلسفته و تجربته في النهضة العمرانية لدول الخليج العربي، التي حدث في حيثيات وطأها للحداثة ،قطيعة مع التراث العماري المحلي، الذي يبقى التفريط به وهاجس إحيائه،والرغبة بنهوضه الشغل الشاغل للكثيرين من العامة وأهل الشان. ندعو الله لشيخ البنائين المعمر المديد، ونسأله عن بدايات تكوين فكره وفلسفته العمارية:

**** كيف نسجتم الخيوط الأولى لمنهجكم الفلسفي في العمارة ؟***

-لقد كان تطلعي منذ تخرجي إلى البحث عن مسلك عملي يعاضد الفكر والمبادئ النظرية ،التي هي حصيلة دراستي. فحاولت في كل تلك الحيثيات ان أجد لي اعتبارات ووضوح قصد في ما أفكر به بما يتعلق بالقيم الخلفية بما يجعلني أعطي الدراسات قيمتها المثلى .كل ذلك قد أوصلني الى ثالوث مقدس وجدته الأنسب في نفسي، وأخالف به ثالوث فتروفيوس منظر العمارة الروماني المعروف، الذي استمر مدده وقوة حجته حتى ورد فكر ليكوربوزييه في القرن العشرين ، وكان فحواه تكريس الفهم الجمالي والحس البصري للمبنى بما يجعله تحفة الناظر المتجسدة في واجهاته الأربع، التي يحقق من خلالها القوة والعمق. واعتقادي مضمونه يعاكس. وإذ أعتبر أن (العمارة) هي أولا وقبل كل شئ (عمران) و هو مفهوم يقوم على مثلث ،نصابه الآتي:

١-الإنسان: الذي يتضمن القيم الإنسانية والروحية والإيمان والعقيدة والقيم الاجتماعية ثم ما يشمله من حيثيات العقل والحقوق والواجبات والأخلاق وعلاقة الإنسان بالأنسان..الخ.

٢-المكان: وهو حجر الزاوية في العلاقة الحميمة مع الإنسان وأسميها (العمارة الصفرية)، وهنا نرصد العلاقة الجدلية، فالإنسان بدون مكان والمكان بدون إنسان هو أمر يخلو من سطوة المنطق.والمكان هنا هو المسرح الطبيعي الجغرافي الذي يتعامل معه ويختلف الإنسان باختلافه ويتشابه بتشابهه.

٣-الزمان: ويتضمن البعد الوجودي والبعد الرابع والبعد الإلهي السماوي والكوني(Divine Dimension)والبعد الزمني.

فلا يمكن فصل أحدها عن الأخر فالإنسان وحده لا يكفي والمكان الخلاء بدون عمران الإنسان لا يعني شيئا وكذلك المكوث في الزمان يعني الالتصاق بالتاريخ والتراث وعدم التطور. فلكل من العوامل الثلاث تأثيره ولا يمكن أن نجرد احدها او نكتفي بأحدها. والكل لدي سيان وهو ما أطلق عليه (المقياس الإنساني) وبالنسبة لي مضمار تفاعل أو كما أنا تفاعلت معه.

ثمة تساؤل ذاتي يطرحه العقل آليا و منطقيا وفحواه:من أكون أنا لكي أفرض عليك تصميمي ووجهة نظري دون المرور بتلك الاعتبارات الجوهرية في التصميم وإعطائها شوطها ومداها ومستلزماتها .فالتصميم في نظري هو محصلة التفاعل بين عوامل ذلك (المثلث المقدس)، الذي لا يجب أن يشذ أو يبتعد عن منطقها ،وبذلك فالتصميم العمراني والعماري يأتي مسترسلا وآليا ومتناغما مع تلك المعطيات،التي هي في حقيقتها الشاملة محصلة تفاعل خلالها جهدي وقناعتي وضعفي و قدرتي .ويمكن أن يصيب التعمق في مفهوم تلك العوامل تحسن مضطرد ،وهذا ما حاولت جهدي إليه واعتبرته سنتي في العمل الإنتاجي وشغلي الشاغل فيما أستعين به في تحكيم المسابقات المعمارية التي شاركت فيها أو التحضير لمشاريع عمارية خلال حياتي .

لقد كانت نصيحتي لتلاميذي على الدوام بأن لا يتخذوا الأحكام المسبقة والمتسرعة أو تطبيق فكرة قفزت بنزوة الى خلدهم ،بقدر ما يجب التعمق في كنه البدايات والخوض في غمار البحث عن الخلفيات التي سردتها آنفا ولاسيما علاقة المشروع العماري بالماضي، وذلك بالحوار مع ذلك الماضي .وفي خضم البحث عن ثرائه يجب أن لا نلغي على الناس عمق فكرهم وفطنتهم وحذقهم في حرفتهم والحس التراكمي الزمني لتلك الخبرة ،التي تتطلب أن نكون على درجة من العبقرية التي تدانى ثراء تلك الخبرات وتفوق عليها وهذا أمر فيه من الإعجاز الكثير .وأتذكر هنا قول أحد أساتذتي ناصحا بان الصعوبة تكمن في أن نضيف ونثري ما تخلف من نتاج الماضي،كل ذلك يحفز الكثيرين على عمل الجديد، لكن المشكلة تبقى في مدى التعمق و الجهد المبذول في سبيل ذلك. ربما يكون هذا هو جوهر المنحى الحداثي الذي سار عليه الكثيرون.

****وهل يمكن إعتبار منحاكم الحداثي يدخل في ذلك الإطار؟***

- الحداثة بالنسبة لي هي سمه تفرض نفسها،فهي حالة متفاعلة ومتحولة تدعونا الى التعامل مع كنه كل خصوصية بذاتها(Special case)وتجربتي ترشد الى انني كنت يوما محافظا لغرض تكريس المحافظة على هوية المكان حيث أدعوها (المحافظة الإيجابية) التي تتطلب تفاعلاً وتعاملاً خاصاً بحيث يمكن أن تكون النتيجة استحداثاً أو تجديداً (Renewal)للمكان كمقياس يفرض نفسه. وهذا الحل ليس قاعدة شاملة تنطبق في كل حالة، فأحيانا أجد نفسي محوجا الى تفكيك البناية والبحث عن مفردات العمارة المتناسقة والمتجانسة مع مفردات النسيج العمراني الذي يكتنفها.وعادة ما توصلني تلك المفردات الى التعامل مع الفضاءات التابعة له بما يمكن أن يشكل لنا ما أدعوه المفتوح والمغلق(Open-close space) .كل ذلك يدعونا الى تفكيك عناصرالعمارة التراثية لغرض تحسين أدائها وتطوير ملكاتها و إعطائها بعداً أخر مستفيدا من حصتها بالسماء والضوء.

وهنا نتذكر ذلك الحوش السماوي الذي كان يضطلع بجيز مهم في بيوتنا ويجعله منتميا الى الفضاء الخارجي والسماء الكوني والليالي والنجوم والقمر ، ويتداخل مع الروحانيات وكما جاء في (القرآن الكريم) واصفا السماء بانها السقف المرفوع والأرض بأنها المبسوطة من تحتها،وهي معلومة نجد فيها الكثير من الإيحاءات الروحانية التي تجد لها طريقا تجسيديا في العمارة.

وتقودني تلك الجدلية الى مفهوم المحدود واللامحدود (Infinite &definite)الذي يمكن أن يشكل فيها التراث غنى ومعينا لحل تلك الإشكالية التي كانت قد وطأت أروع الحلول خلالها، ونعني هنا مفهومي الخاص والعام والحد الفاصل بينهما، وما مدى هيمنة أحدهما على الأخر . وفي تراثنا نجد كيف تطور الخاص بما لايمس العام بسوء والعكس صحيح .أما إشكالية المعماريين المعاصرين فهي سعيهم الدؤوب لإثبات الشخصية و الترويج عن المواهب،الذي يوصلهم إلى نتائج معاكسة أحيانا وهي عدم استيعابهم هذا المفهوم وعدم حثهم الخطى في فهمه وإفهامه ،فجاءت عمارتهم حالة من طغيان العام على الخاص ،الذي أدى بدوره الى خلخلة تلك العادلة التراثية الصحيحة.وهكذا فأن المنافسة بين فذلكة هؤلاء المعماريين اتخذت مسارا مغلوطا ،فحواها التباري في الإبهار وإظهار جمال المبنى من خلال معالجة واجهاته تحديدا. ونجد أسطع الأمثلة ما يبنى اليوم في مدينة دبي ونضرب مثلا في بناية (برج العرب) الذي اسهب الناس والإعلام في الإشادة به، وهو إلا محض مهرجان للإبهار الجمالي الذي فقد مبرره الجوهري القاضي بتكريس التوازن بين العام والخاص ،وبين أخلاقية العمارة و الفكر الإنساني في حيثياتها.

وثمة أمر اليوم فاز بالحظوة والاهتمام ندعوه بـ (الجمالية البهلوانية) الذي تجرد من الحس الإنساني وفشل في إشراك الناس ونتاجه ، وأبتعد عن ذات المكان الذي ينتمي اليه ،وهكذا كرس قطيعة وعائدية مع الزمان والكون بما فيه من سماء وهواء وشمس وهو بالنتيجة قطيعة مع المسرح الطبيعي والجغرافي والجذور العميقة للمكان. وهنا نرشد الى خصوصية المكان الجغرافية المنتجة لعمارة معينة كبيئة الجبل والسهل الطيني والصحراء أوالساحل، التي أختفت في عمارة البعض.أن تلك الخصوصيات تجعلنا نتلمس الواقع وندقق في الفروق بين الواقع التراثي والواقع المعاش.

****هل هذا يعني أنكم ترفضون البناء الراسي والأبراج لأنه لم يضرب بجذوره في العمارة التراثية؟***

- لا أبدا.. أنا لست ضد البناء الرأسي بالرغم من أن وجوده في التراث كان محدودا ومحصورا في عناصر المنائر والقباب الراسمه لخط سماء المدينة التراثية، وهو بذلك يدخل في إطار العمارة الدينية. فلو دققتم النظر في مشروع مجمع المحاكم الذي صممته في الرياض كانت البناية الرئيسة للإدارات برجا بنائيا يرتفع خمسة عشر طابقا .وبالرغم من أن هذا المجمع له خصوصياته بما يتعلق بالحكم والعدل الذي يمكن أن يكتسب الرمزية الأفقية الدالة على المساواة وتحاشي التباين في المستويات بين الحاكم والمحكوم وقربهم الى الأرض، وهي صفة من صفات العمارة التراثية. لقد كنت أجسد بذلك فهما متحركا وغير جامد للتراث من خلال إعطاء التعامل مع فضاء المدينة وحركتها ككل وخصوصية المكان والواجبات التي حتمت أن أوازن بين الفضاءات المغلقة وشبه المفتوحة والمفتوحة (open, semiopen & close)وكذلك بين الأفقي والعمودي لفضاءات المجمع. وبذلك أخترت لهذا البرج أن يضطلع بشكل البوابة الصرحية الرئيسة له ليخلق هذا التوازن بين الأفقي والعمودي.

أن الضرورة في خلق فضاءات عمارية متوازنة مع حالة المدن الجديدة التي وصل عرض الشارع فيها بين ٤٠-٦٠ متراً، كل ذلك أقتضى إعطاء المستوى الأرضي أهمية استثنائية ،ولغرض تحاشي امتداد البناء الأفقي والمعالجة بالممرات الطويلة المملة ،فقد ارتأيت أن يكون هذا البرج (البوابة) ينتمي الى تراث المدينة والمنطقة من خلال جعل شبابيكها تطل على داخل البناء وليس على الخارج. ومبدأ التطويق أو التسييج (Enclosure)لقد طبقته بحذافيره في بناية البنك الإسلامي في جدة،وغيرها من البنايات البرجية التي صممتها بحيث وهبت الصرحية العمودية في كنفها قيمة وحقوقا تصميمية.

لقد كانت هذه الإشكالية مطبا دخله اليابانيون في بنايتهم الواقعة في جدة على الطراز العالمي ،والتي يمكن أن نجد مايحاكيها في أي مدينة من مدن العالم ، بعيدة عن خصوصية المكان التراثية ومواءمتها مع مستلزمات بيئة المنطقة الطبيعية والاجتماعية . لقد لجأوا الى استشارتنا بالأمر، وأوفدوا عنهم خبيرا قضى بعض الوقت عندنا هنا وذهبت اليهم أنا شخصيا لمتابعة الموضوع الذي تغير فيه الحال بحيث اصبح مختلفا عن الأساس الذي اقترحوه في البداية،وأصبح متوائما الى حد بعيد مع بيئة جدة و(رواشينها) التي هي ميزة بيوتها التراثية التي جعلتها تنفتح الى الداخل وجعلت حركة الشمس تلجها من الشمال الى الجنوب في الفضاءات المكشوفة لتكون معينا لي بخلاف الولوج الرأسي لها ولحماية جهتي الشرق والغرب للبناية من تأثيرها السلبي .وغطيت أجزاء منها بمناور من قباب زجاجية تساعد في إنارة المكان والمحافظة على فضاءات ذات دفق ضوئي صميم، مع عدم إلغاء السطوح واستغلالها التي هي من صلب التقاليد في العمارة المحلية .

وهكذا بالمحصلة فأنا لست ضد العمودية في البناء بقدر ما لي شروط حدية على تلك العمودية بأن تسمح بتوازن وتجانس مع أفقية المحيط الحضري للبناية. والشرط الجوهري في كل ذلك أن أكرس في عموديتي المصلحة العامة وليس في مصلحة الطغيان والإختيال السلطوي.

لقد وجه إلي مرة سؤال عن رأيي في الصرحية والعمودية التي تتصف بها بنايات نيويورك ،فاجبتهم بان هذا كان نتيجة اقتضاء حال وإرهاصة لحاجة ولكن لوكان الأمر تابعا لي ، فانني اكتفي بطابقين أو ثلاثة ملاصقة للأرض يمكنني ان أهيئها بمماش للناس مزدانة بنافورات مياه ومروج خضراء وأجواء إنسانية صميمة تقترب من سجية البشر بالتصاقهم بالأرض وسأترك لهم على الأرض الأماكن المخصصة للمصاعد التي تنقلهم الى أبراجهم. ،ثم أترك لهم الطوابق العلوية يشيدون فيها ما يشاؤون من مكاتب ومصالح .

وهنا يمكن رصد إشكالية جوهرية في التخطيط الحضري المعاصر والمتعلق بالعلاقة بين الإنسان والسيارة الذي يدعونا الى التمييز بين حقوق كل منهما، لاسيما ما يتناقض مع الحلول التراثية التي كانت تتعامل مع الشارع كفضاء للعيش الجماعي يجلس الناس في المقاهي الواقعة على ناصيته ويتخذه بعضهم مكانا لشرب الشاي أو حتى التسامر مع الجيران، دون المساس بخصوصية المكان ،ناهيك عن الصفة التي اكتسبها الشارع في تراث المدينة من مكان للالتقاء والتربية والتثقف والمعايشة مع التجمع البشري، الذي قطعت السيارة أوصاله ،بحيث لم يعد كما كان. كل ذلك خلق حالة من التناقض في تنظيم الحياة الاجتماعية في المدينة، مما يعني إعادة النظر في حلولنا للشوارع ومنزلة السيارة التي أغتصبتها عنوة.

****إن تطوير البيوت التراثية يصطدم بمقتضيات الحياة الحديثة لاسيما حلول السيارة عنصراً جوهرياً في حياة المجتمعات .ما هو موقفكم من هذا القادم الذي غير البنية الأساسية للحي و بنية البيوت التراثية؟***

- نعم هذا هو الواقع فقد أدت السيارة دورا كبيرا في تغيير نمط الحياة البشرية، لاسيما إذا رصدنا رغبة الإنسان بأن تكون السيارة في متناول يده أي داخل أجواء الدار، مما أوصلنا إلى حل مخطط (الفيلا) الحديث الذي يفرض علينا حلولا لا يمكن التنصل منها لاسيما في قانون الأراضي البنائية الذي يجبرنا على ترك مسافة أربعة أمتار للمبنى عن الشارع والجيران مما جعلنا مقيدين بشروط البناء في وسط الأرض المراد إعمارها، مما يعني بكلمة أخرى إلغاء فكرة الفضاءات المفتوحة المغلقة (Close &Open spaces)واصبح مصير تلك الفكرة أدراج الرياح .

وهنا نرصد لبعض العوامل التي تؤدي دورا في موائمة بعض الحلول التي تقتضي تخصيص مرائب للسيارات تقع في طابق وسطي وليس في طابق أرضي تحتاني بالكامل لنتحاشى بعض العوائق التقنية التي لا يشجع فيها على الحفر الغائر في أرض طينية نزيزة مثل ماهو موجود عندنا في العراق.ناهيك عما يتركه وقع هذا الطابق سيكولوجيا الذي يوحي بالسرداب الذي يرتبط في أذهاننا ببيت القيلولة في مدننا الحارة وليس لولوج الآليات . وفي ذلك الحل يمكننا كسب طابق ليس عاليا عن سطح الأرض وليس محفورا في نافقها، بقدر ما يمكن الصعود اليه بعدة درجات بسيطة لا توحي بصرحية القصور المراد به الخيلاء التي أتحاشاها تماما .إضافة الى سهولة صعودها ونعرف أن الكثيرين يفضلون صعود منحدر الأرض على طول عدة أمتار من تسلق درج باسق وهو مردود سيكولوجي يجب أخذه في الحسبان.

ونقر هنا بأن ذلك الحل يكون مكلفا ولايناسب ذوي الدخل المحدود ولكن يمكن الأخذ به في مواضع أخرى. وهنا أتذكر في مشروع كنت قد أعددته لصالح أحد الأمراء في مدينة الرياض بالعربية السعودية وفزت بالمركز الأول ولكن المشروع لم ينفذ للآسف .وكان عبارة عن مجمع سكني يقطنه الأجانب ويوفر على درجة عالية من مقياس الرفاهية .وقد أعددت لمجمع الحي مساحات تليق بذلك المقياس ومنها ساحات اللعب والراحة التي تحف بمجموعة المساكن المتوافرة فيها وسائل الراحة ، ولكني توخيت تجريدها من محل خاص لمرآب السيارة المندمج مع الدار والذي يقتضي على ساكنه أن يقطع مسافة ١٠٠-٢٠٠ متر بين الموقف الجماعي المخصص للسيارات وبين داره . وكنت أرمي الى الإقتصاد بالمساحة التي تكلف الكثير في البناء أبسطها ٣٠ مترا مبنية لتضم سيارة يركبها شخص واحد ناهيك عن الشوارع والممرات وتسهيلاتها التي تصبح هنا تفريطا في المساحة وتبذيرا في المصاريف، التي يمكن إضافتها الى البناء والمساحات الوظيفية الأساسية للدار.

وفي محاضرة لي كنت قد القيتها في إحدى المناسبات وقلت فيها أن الأجيال الصاعدة في المستقبل سوف تلومنا وتجرمنا على هذا الإجحاف الذي نفرط فيه بمساحة الأرض،حتى ليصل بهم الحال وصفنا بـ (البدائية) على تصرفنا (الأرعن) هذا الذي يقتضي استعمال آلة طولها خمسة أمتار لننتقل بها ٣٠كلم من أجل الإمضاء على قصاصات ورق والعودة أدراجنا. فبالوقت الذي تكون مساحة حانوت منتج إقتصاديا لا يتعدى مساحة مرآب للسيارة التي تشغل بال الإنسان بيردها وسخونتها ليس إلا لتنقله تلك الكيلومترات. أنها حالة بائسة تدعو إلى التأمل وإعادة النظر بالرغم من كونها حاجة ولكنها لا تستأهل كل تلك الحظوة. وهنا تجب موائمة المساحات و الفضاءات المبنية لمقتضى وواقع الحال وتطور الحياة والتي لا يمكن إلغاؤها، وتوفير الأماكن المخصصة والمظللة لها.

وأعطيك مثلا على انتهاك السيارة لحق الإنسان وحرية حركته فقد وجدت في بيروت رصيفا لايتعدى عرضه عرض الإنسان أي ٦٠سم وهذا يعني أنك قد الغيت نفسك والمساحة المخصصة لك لتهبها لحرية حركة السيارة التي هي في جوهرها صنيع عقلك ويدك. وهذا ما جعلني اقترح مرة أن أوسع فيه الرصيف ليصل حتى ١٥ مترا لتتسع حركة الناس بعد أن توشح تلك المماشي بالأشجار والمزهريات وأماكن الجلوس والإنارة العمومية وما الى ذلك من عناصر الأثاث الحضري العمومي. وهو ما ينطبق كذلك على إلغاء بعض الشوارع التي يخصص استعمالها للمارة والمشاة فقط و إلغاء حركة السيارات فيها إلا ما يلزم لبعضها التي توظف لأغراض التموين أو جمع القمامة أو التنظيف، ويزدان هذا الشارع بمجموعة من المقصورات (الأكشاك) التي توظف للتجارة والخدمات العامة وتكون قواعدها أروقة للمشاة، وبذلك نرجع المدينة الى نظام الأزقة الخاصة المظللة التي كانت سارية في المدن التراثية ، وهو ما أفكر به في المدن القديمة مثل أزقة كربلاء الجديدة ، التي تجب إعادة تهيئتها لهذا الغرض من جديد.

****لاذن كيف تعاملتم مع الفضاءات الجامعة بين القديم والحديث إذا اقتضت تهيئة عمرانية شاملة للمدينة؟***

- أتذكر في بداية السبعينات من القرن العشرين ،كان لي مواجهة مع هكذا أمر حيث كلفت بمشروع للتهيئة ومعالجة الواجهات الحضرية لمدينة دبي إبان بداية نهضتها الحديثة لاسيما بعد التوسع الذي طرأ عليها بما يحاذي المنطقة القديمة أو (الديرة) .حيث اقتضى الأمر أن اطلب منهم إعطائي حافات الشوارع لمسافة طولها ثلاثة كيلومترات من ذلك الشارع الطنفي الذي يشرف على خور دبي لكي أخططه وأتعامل معه بكيفية نسيج السجادة التي تحتاج أجزاء منها التدخل للترميم و(الروف) بحيث لا يغير فيها أو يؤثر سلبا في طابعها وألوانها الأصلية وروحيتها التي الفتها منذ نشوئها،بالوقت الذي يطور في بنيتها لاسيما فروق الارتفاعات في واطئ البنايات وعاليها، ويحسن أداءها ويهبها عمقا حضاريا متجددا وينظم الوظيفة العمومية فيها ويحافظ على كينونة تخطيطها ويحيي أزقتها المتفرعة من هذا الشارع .

وقد أعطيت أهمية استثنائية للتجانس بين الأبراج الحديثة فيها مع البنايات التراثية من ناحية المعالجات العمارية وكذلك إضافة نوع من الأرقة الأفقية بينهما،بحيث تكسر حالة من التهذيب وخفة الانتقال بين المرتفع والواطئ والقديم والجديد.وهكذا يمكن تشبيهها بحالة (روف) السجادة والهدف منه سلاسة الانتقال تطوريا من الحالة التراثية المرممة الى حالة مقلدة للتراث الى حالة من العمارة الحداثية.

وأتذكر في سياق هذا المشروع بصفتي استشاريا لتصميم وتنفيذ فندق هيلتون دبي الذي حضر مندوب الشركة من نيويورك وممثلهم في مصر للقائي. وقد كانت مفاجأتهم كبيرة عندما رفضت موقع المشروع بسبب حيويته وجمال موقع الأرض التي أخبرتهم بانهاعزيزة ولايمكن التفريط بها.وفي لجة الأخذ والرد اضطرني الحال الى رفع الأمر الى المتعهد الأول في المشاريع الذي أخبرته برايي وعدم رغبتي في أكون سببا في حرمان المدينة من تلك الأرض التي لايليق التفريط بها لصالح بناء فندق ، ولديكم غيرها من الأراضي الخلاء التي لا تكلفكم الكثير. وهنا رصد أخلاقي في تقسيم الأراضي التي لعبت بها عوامل الطمع والاستحواذ غير المشروع التي أساءت لملامح المدينة لاحقا. وقد تعرضت حينها لضغوط من لدن ممثل الشركة العالمية التي لها ارتباط بجهات أميرية عليا ،جعلتني أصر و أمارس قناعاتي وما يمليه علي ضميري العملي وصفة الأستشارة التي أوكلت بها وأنمنت عليها .

****هل تعتقدون أن تنمية الحس الجمالي هو الضامن للخلاص من ربقة الفوضى التي تكتنف حياة مجتمعاتنا ومدننا ؟***

- دون أدنى ريب أن الحضارة تعني تنمية الحس الجمالي ولكن هو ليس الوحيد الضامن لوطء أعتاب تلك الحضارة ،فنحن نحتاج الى جهد جبار وعمل دؤوب نحدد فيه الأولويات أولا ويشارك الكل فيه لاسيما علماء الاجتماع الذين وللأسف تخلوا عن مهمتهم المقدسة في رسم مخطط توضيحي لهاجس وسكنات وحركات المجتمع والآليات المحركة له ووجوب وضع آليات لضبط تلك الآليات والتحكم في جماح المستجدات التي تولدت بين ليلة وضحاها في مدننا وهو هجوم الريف على المدينة وما تبعه من تغييرات جوهرية في بنيتها الذي اثر في هيكلية المجتمع وأنعكس على القرار السياسي بصلبه بالوقت الذي انشغل علماؤنا الأفاضل بنوع من الترف الفكري.

نضرب مثلا في الندوة التي عقدت لدينا في ديوان الكوفة عن المرحوم حنا بطاطو حينما انشغل المتدخلون بالطبقات الاجتماعية، والتنظير السياسي لها،دون الخوض في ما هو أهم وهو علاقة الريف والمدينة الذي هو مفتاح العقد الاجتماعي الذي يستأهل المعاينة الدؤوبة لحل مشكلة المجتمعات والمدن العربية.

يقودنا ذلك الى ماهو موقفكم في التعامل مع حالة إحياء التراث؟

نعول في إحياء التراث على الطبقة الواعية التي أنزلقت في بعض الأحيان للتعامل مع التراث كما تعامل معه جهلة القوم ،وذلك بحالة من السطحية في قراءته ،دون الخوض في الصيغ الكيفية و التحليلية والتمثيلية لذلك التراث ومحاولة استقاء المفيد منه لينعكس حيا وملموسا في حياتنا المعاصرة. فإحياء التراث ليس المكوث في أحداث الماضي، وانما نقل هواجسه معاشة في حالنا الحاضر.

و يقودنا هذا الى هدف منشود هو البحث عن حداثة لم تحدث بعيدا عن الصيغ الجامدة السقيمة المجردة للتراث ،لان فحوى الحداثة يكمن في تميزها وعدم حديتها وجمودها وضيقها الفكري واحتوائها على منظومة القيم المرجوة ضمن الإطار الإنساني المتكامل و نسميه البعد الإنساني للحداثة ((Human scale،المجرد من الصيغ المادية التي تعكسها كلمة (المقياس) في ذلك ،ويعكس بذلك التكامل المطلق لهوية الإنسان مع المكان والزمان.

ويمكن تلمس ذلك في منظومة الظواهر التي طفت كمستجدات على سطح حياتنا المعاصرة. وفي لجة التفريق بين مواءمتنا الآلية والميكانيكية نجد مثلا مقصف الكباب الذي كنا نؤمه في السنوات الخوالي حل محله مطاعم الأكل السريع و(مكدونالدز) كل ذلك يحتاج الى الوقوف مليا بواقعية، تنأى عن الرومانسية والعواطف والحنين الى الماضي(نوستالجيه) ،والبحث في إمكانية ملاءمتها مع هاجس المجتمع ومتماشية مع رغبات طبقات الأعمار والأجيال الصاعدة فيها. وهذا يقودنا الى نقطة جوهرية هي حساسية التعامل مع الإنسان ليس كبشر يعيش أيامه وينتظر أن يتوفاه الله بقدر ما هو عامل حيوي مبدع ويستأهل العناية به .

وفي ذلك نعتقد بأن الخصوصية التراثية لدينا هي حالة ليست انعزالية ومتقوقعة على ذاتها بقدر ما هي حالة يمكن الولوج معها الى صلب التفاضل مع ثقافات العالم دون أدنى حساسية أو مركب بالدونية ،و يقودنا ذلك الى دحض حالة الاستحواذ الثقافي الذي يجعلنا متشبثين بما في أيدينا ولا نريد أن نفيد به الآخرين. وهذا يقودنا الى منظور جديد والى آفاق القرن الجديد وكيفية التعامل مع العالم المتغير والاستناد الى التراث برؤية جديدة واستشهد هنا بما قاله (ابو نصرالفارابي) في مفهوم (المعمورة الكونية) الشامل وانتقال الفكر فيها بتصور جديد يأخذ في الحسبان الحالة الشاملة للكون واحترام الخصوصيات والتفاصيل.

فمثلا أنني عندما اصمم بناية للإنكليز أجد نفسي متقمصا روحا إنكليزية واصبح إنكليزيا أكثر منهم لاصل بالنتيجة الى أعمق العطاءات الخصوصية لذلك التصميم في إطار المكان والزمان . و أسلك هذا المسلك لأصل الى لب المسالة وذروة النتائج من خلال بث إنسانيتي فيها التي أشترك بها مع الإنكليزي بالرغم من عدم سطوتي على المكان وكذلك الحال في البعد الزماني .

ومن أجل الوصول الى تلك الروحية في التعامل مع العمارة كان يجب أن نفكر بحالة عمارية تتكرس من خلال التعليم المعماري الذي توخيته عندما خططت جامعة الكوفة بحيث رمت إلغاء هيمنة التسيير الحكومي والبيروقراطية وذلك من خلال مؤسسة حرة لا تتقيد بإملاءات السلطات وتدخلها . ونجد في ذلك أمثلة جامعات كمبرج وأكسفورد في بريطانيا التي ليس لها أي صلة بالسلطات الحكومية لاسيما في مجال المنهجية والهدف العلمي . ولدينا أمثلة مؤسسات دينية كبيرة مثل الأزهر تستطيع تأدية الدور نفسه وتسعى الى عالمية الفكر وإحياء التراث الإسلامي دون تدخل السلطات.

وأخذ مثال إعادة بناء مدينة مسقط الذي أشرفت عليه وكان لي باع فيه بحيث تسنى لي أن أطبق فكرة البناء الذاتي الذي يقوم على أكتاف أهل المدينة الذين سوف يجدون أن مصلحتهم تتداخل مع مصلحة إحياء مدينتهم وقمت بطبع كتاب وزع على جميع بيوت المنطقة المراد إعادة تأهيلها ليعرف كل منهم دوره وما يعمله في داره وما هي حدود الالتزام بهذا البرنامج الذاتي الذي تضبط آلياته مجموعة من التشريعات التي ألزمت الجميع التقيد بها وتبناها السلطان نفسه لضبط ما يترتب عليها بحيث تم التقيد بالفكر العمراني من خلالها. وقد أخذ في الحسبان عدم المداهنة والتدليس في ذلك ولاسيما لدى علية القوم وخاصتهم الذين يرومون التمتع بامتيازات والتي كان الضلوع في التهاون بها يؤدي الى الحيلولة دون الوصول الى النتائج المسطرة في ذلك المشروع الحيوي.

****يقودنا الحديث عن عمران مدينة مسقط الى السؤال عن إمكانية توحيد الرؤى العمرانية بما يوصلنا الى نظرية عمرانية عربية شاملة ومشتركة ؟***

أن للثقافة العربية المشتركة اثر موحد كبير في منظومة تلك المدن ولكن يبقى لخصوصية كل مدينة مرده التكويني و بكونه إرهاصة لحالة مكانية وزمانية ذاتية يمكن ان تختلف في طبيعتها مع شقيقاتها العربيات بالرغم من كم العوامل المشتركة الموحدة التي تصب في هذا الاتجاه ،فلكل مدينة جوهر كان قد أسس لها كينونتها بما يتناسب مع موقعها، وتكمن عروبتها في مقدار انتمائها الى ذلك الموقع ، وتماشيها مع معطيات الواقع الاجتماعي الذي حتما سوف تتبدل بتبدل أخلاقه ، ويمكن الأخذ بذلك الأمر مناصا لأجل القفز الى عالمية الفكرة التي تنتمي الى إطارها وهويتها العربية التي تختلف حتما باختلاف المكان، ففي رأيي لا توجد بيئة عربية واحدة فهنالك الصحراء والسهل والجبل والساحل الرطب والاهوار العراقية،ولكل منهما مقتضياته وخصوصيته ،فلذلك سوف لا نلقى قريتين متطابقتين في التخطيط.

لقد كان لي نشاط محموم في منطقة الخليج ودراسة استغلال الأرض فيها بعد حقبة النفط والانفجار الحضري وأخذت مثال جانب الديرة من مدينة دبي التي كنت قد أنشأت بها مجموعة من المباني وقد تسنى لي دراسة الحال فيها عن كثب وتوثيق ذلك في فيلم سينمائي يشرح لخصوصية ساحل المدينة الممتد لمسافة عشرة كيلومترات وكيفية الوصول الى أدق الحلول المتناسبة مع خصوصيته البيئية.

ويمكن إجمال الحلول للمدن العربية من خلال الدراسة المعمقة لواقعها الحالي وواقعها المحتمل.فلناخذ بغداد مثلا التي اعتبر أن الحلول التي كانت يمكن أن تكون ناجعة في الثلاثينيات او الأربعينيات من القرن العشرين لا تنطبق حتما على ما يمكن أقتراحة اليوم لإنقاذ حالها ويمكن بذلك الخوض في حالة من التخطيط المرحلي على ثلاث مراتب الأولى قصيرة المدى والثانية متوسطة والثالثة بعيدة ويمكن أن تستغرق كل مرحلة من تلك المراحل خمسين عاما يتم من خلالها الانتباه الى ما يمكن الحفاظ عليه وما يمكن أن يزال خلال كل مرحلة من تلك المراحل وما يمكن أن يضاف الى النسيج العمراني ،لكي يتسنى المحافظة القصوى على محيا المدينة التراثي وضمان استمراره وتطوره المتسلسل البعيد المدى .وبذلك نحتاج الى آليات ونظام تشريعي يدعى التعويض والتحسين (Compensation & betterment)،ونعني بذلك نوع من السياسة النفعية التي تصب في صالح أصحاب الأراضي المهملة التي أخططها وأعطيها أهمية استثنائية لترتفع أسعارها عشرة أضعاف سعرها القديم ، ثم أخذ قطاع منها واخفض سعره ثم ألغيه كما هو الحال في كربلاء التي تستوجب المحافظة على المدينة القديمة ،وتطويقها بحزام أخضر يحافظ عليها ويطور بيئتها المحيطة ،ويمتد منه مجموعة من الشرايين باتجاه الخارج التي تبقي على تجمعات اسميها مجازا (الأورام السرطانية) فيما بينها ،والتي يجب استئصالها وتخليص المدينة من أدرانها تباعا ،والتي يمكن ملئها بنماذج مدروسة(Cases study)الذي سوف يضطلع بمهمة القدوة الحسنة التي نتلمس جدواها تباعا بعد أن يبدا الناس في تقليدها والاحتذاء بها ،ويتبعه توسع تجسيدها في أماكن أخرى.

وهذه النماذج حصيلة فكر واستيعاب للواقع الجماعي وليس الفردي التي يمكن ضمان استمرارها بمعين ما ندعوه سلطة الثقاة أو الأمناء((Trusty، التي يجب أن تكون منتخبة من العامة،أصحاب المصلحة في ذلك .ومجلس الأمناء هذا يضطلع بالتفكير المنظوري لحالة المدينة وبالتفكير بما تؤول إليه الأحوال عندما يحل الأحفاد بين ظهراني مدينتهم التي يترحمون بسببها على أحدادهم .

وهكذا سوف يرى جيل واحد من سكان المدينة إمكانية وملامح هذا التحول في واقع المدينة خلال الخمسين عاما التي يعيشها الفرد بين سني(٢٠-٧٠) عاما التي تتكرر على ثلاث أجيال يمكن خلالها ضبط سكنات وهواجس الم